معركة بلغراد

بلغراد هذه مدينة منيعة، تقع عند نهاية نهر الساف في نهر الطونة، فنهر الطونة شمالها ونهر الساف يقع غربها، فهي عبارة عن شبه جزيرة، يحيط بها من جانب هذين النهرين سور واحد سميك متين، ومن جانب البر سوران عظيمان وخندق واسع عميق، وقد كانت بلغراد جزء من صربية وتابعة لها، ولكن عندما توغل الأتراك في أوربا طلب ملك المجر من جورج برنكوفيتش أن يُسلِّم إليه هذه المدينة؛ لأنها ضرورية للدفاع عن حدوده، ولأنه أقدر على الدفاع عنها، ورضي جورج برنكوفيتش ذلك، وسلَّم إليه بلغراد في مقابل قلاع وأراض في داخل المجر تعطى له لتكون ملجأ للفارين من أهل صربية (١٤٣٥)[١].

ونعود إلى محمد الفاتح، والذي لم ينتظر حتى يفاجئه هجوم هؤلاء، بل سار إلى بلغراد على رأس مئة وخمسين ألف مقاتل، ورأى الفاتح أن يحاصر هذه المدينة من ناحيتي البرِّ والبحر بعد أن أمَّن جميع حدوده التي قد تطعنه من الخلف، وبعث بسفنه إلى الطونة من طريق البحر الأسود لتجعل من نفسها سدًا قويًا في النهر تجاه بلغراد يمنع عنها كل مدد أو معونة قد تأتي عن طريق النهر من الشط الثاني.

وخرج السلطان محمد الفاتح على رأس جيشه الضخم، وما إن وصل إلى مدينة (كرسوفاز) حتى أمر جنوده وقادته بنصب المدافع التي ستدك أسوار مدينة بلغراد، وقد أصاب جنود الفاتح في هذا اليوم شيء من الغرر والاستخفاف بالعدد، وأعجبتهم كثرتهم وقوة معداتهم، فقد فتحوا القسطنطينية

---

(١) الرشيدي (ص١٦٢).

أعظم قلاع بيزنطة في الشرق وأشدها مناعة، فكيف ببلغراد هذه إلى جانب القسطنطينية، وظنوا أنها رحلة سهلة، واستخفوا بعدوهم واستضعفوا قوته، وهنا مكمن الخطورة.

أما هونياد قائد الجيش الصليبي، فقد هبط بسفنه من بود، وكانت تساوي السفن التركية في العدد والكثرة، وكلنها كانت أشد صلابة وإحكامًا في الصنع وأكثر مراسًا ومهارة في النزال والقتال من السفن التركية الحديثة العهد. وبمساعدة الريح وتيار النهر انقضت سفن هونياد على السفن العثمانية الرابضة، فمزقتها كل ممزق، فغرق بعضها في قاع النهر وشل بعضها عن السير فجرفها التيار.

ولما رأى الفاتح ما أصاب أسطوله، أمر بحرق بقية سفنه لكيلا لا تقع غنيمة في يد عدوه، وقتل من الجيش العثماني في هذه المعركة عدد كبير، وأنزل هونياد جنوده المغاوير بلغراد في سهولة ويسر وهم يصيحون بفرح ونشوة، وكان كابسترانوا خلال هذه المعركة واقفًا على الشاطئ يلوح بعلم الصليبيين ويُحرض المقاتلين ويهتف باسم المسيح، وكفَّ السلطان الفاتح عن محاصرة بلغراد من ناحية النهر، وحصر كل جهده وقوته في جانب البر، وركز هجماته المتوالية على المدينة قبل أن تصل إليها الإمدادات من الطونة والساف، واستشهد في هذه المعركة قره جة باشا، أحد قادة الفاتح البارزين، فقد أصابته قذيفة وصرعته في الحال، وكان لفقده أثر شديد على العثمانيين.

ولكن المدفعية العثمانية صبت نيرانها على سور المدينة واستطاعت أن تفتح بعض الثغرات فيه، فأمر السلطان الفاتح في صباح ١٧ شعبان ٨٦٠هـ - ٢١ يوليو ١٤٥٦م بالهجوم، وكان هجومًا ساحقًا قويًا عنيفًا كاد يزلزل النصارى، مما جعل هونياد يفكر في الفرار لولا الراهب كابسترانوا الذي ظل يبعث روح

الحماسة والحمية في الجيش الصليبي، وجاء بجنود جديدة، مما اضطر الأتراك إلى ترك مواقعهم الجديدة التي كانوا قد احتلوها، ولكن ذلك لم يوهن عزم الفاتح، وأخذ ينظم صفوفه من جديد وقرر معاودة الهجوم على المدينة في السادس من أغسطس.

وفي صباح السادس من أغسطس كان الجيشان على أهبة الاستعداد للقتال، وهجم العثمانيون بكل قوتهم، واندفع كثير منهم إلى داخل المدينة، ووقف الفاتح يحث جنوده ويشجعهم، بينما كان كابسترانو يحرض الجنود ويشجعهم كعادته، واشتد القتال في عنف، وتبادل العثمانيون وأعداؤهم النصر مرة هنا ومرة هناك، إلى أن جاء هونياد بجنود جديدة أحاطت بالعثمانيين الذين كانوا في داخل المدينة، وشددت عليهم الخناق، وكان السلطان الفاتح في هذه اللحظات يقاتل بنفسه عند أسوار المدينة، وفيما كان القتال على أشُده أصيب الفاتح بجرح بالغ في فخذه تفجر منه الدم وسقط من ظهر جواده مغشيًا عليه، وأثار ذلك الحماس بين النصارى فاندفعوا نحوه يريدون قتله أو أسره، ولكن جنود الفاتح والإنكشارية تصدوا لهؤلاء وقاتلوهم وحملوا سلطانهم إلى معسكره، والذي ما إن أفاق حتى غضب غضبًا شديدًا.

وانتهز الراهب كابسترانو هذه الفرصة فانقض في كوكبة من جنوده على العثمانيين وردهم عن أسوار المدينة، وهم بملاحقتهم ومطاردتهم لولا أن هونياد نهاه عن ذلك، لمعرفته بالعثمانيين وأنهم لن يستكينوا وسيعاودوا القتال والهجوم إذا طاردهم، فمن الخير تركهم ينسحبون، ويتم تسهيل ذلك لهم.

انسحب السلطان الفاتح عائدًا إلى أدرنة بعد أن توقف في صوفيا، وقال في إصرار وتحد: إن بلغراد ستسقط في أيدينا عاجلاً أو آجلاً، وإذا لم أستول أنا عليها فإن أبنائي الشجعان سيستولون عليها».

وقد فرح النصارى بنصرهم وزهو به، ويرجع الفضل في هذا النصر إلى القائد هونياد والراهب كابسترانو، وعم الفرح والابتهاج جميع أرجاء العالم الغربي، لاسيما روما مقر البابوية حيث أقيمت احتفالات ومهرجانات عظيمة، وأمر البابا كاليست الثالث بأن يكون السادس من أغسطس (عيد التجلي)، ونالت بلغراد شهرة عظيم، أما هونياد الذي استعاد شهرته العسكرية القديمة، فإنه لم يعش طويلاً، فقد أصيب بجرح، وانتابته حمى عنيفة قضت عليه في أغسطس ١٤٥٦، وبفقده تأثر المعسكر الغربي تأثرًا كبيرًا، فقد كان رمزًا لصمودهم وانتصارهم.

أما جورج برنكوفيتش، فقد أصبح شيخًا كبيرًا طاعنًا في السن، وما لبث أن مات في قلعته بسمندرة في ٢٤ ديسمبر ١٤٥٧م وترك خلفه زوجته إيرين وابنته ماريا أرملة السلطان مراد الثاني وأبناءه الثلاثة جوبجوار وأيتين ولازار، وكان لازار هذا أصغر الثلاثة، ولكنه كان أكثرهم طموحًا وأشدهم جرأة وطمعًا في الحكم والتفرد به، فسمَّ والدته وطرد أخويه، وخشيت ماريا على نفسها من بطشه ففرت مع بعض أقربائها إلى السطان محمد الفاتح واستنجدت به وقد أكرم ذلك الرجل العظيم وفادتها وأنزلها خير منزل[1].

وعرض لازار على السلطان محمد الفاتح أن يدفع جزية سنوية كبيرة، غير أنَّه لم يتمتع بثمرة جريمته طويلاً، فقد مات بعد شهرين من استبداده بالحكم في ٢٠ يناير ١٤٥٨م، وقد أوصى قبل مماته بتزويج ابنته بولي عهد البوسنة

(١) «تاج التواريخ» لسعد الدين.

إستفان توماسيفيتش، ونفذت زوجته الوصية، كما رأى ملك المجر ماتياس كورفان في هذه المصاهرة بين بيتي صربية والبوسنة ما يقوِّي الجبهة النصرانية ضد الأتراك، فبادر إلى الاعتراف بـ (إستيفان توماسيفيتش) حاكمًا لصربية، وخطت (هلين) خطوة أخرى لتأمين بلادها ضد الأتراك فوضعتها تحت حماية البابا وسيادته، وبادر البابا كاليكست الثالث من جهته فأرسل مندوبه الخاص أنجيلوا إلى صربية[١].

ولكن ما فعلته هلين أغضب الصربيين وصاحوا في ووجهها كما صاح الروم من قبل في وجه قسطنطين ملك القسطنطينية، فقالوا: «لأن نكون من الأتراك خير من أن نكون من الرومان الكاثوليك»، وآثروا أن يفتحوا أبوابهم للعثمانيين الأتراك على أن يفتحوها للبابا، واختاروا زعيمًا لهم هو (ميخائيل أبوغوفيتش)، ولكن هلين احتالت عليه وأوهمته أنها تريد مفاوضته فذهب إليها في قعلتها بسمندرة فاعتقلته وأرسلته أسيرًا إلى المجر.

وفيما كان هذا الصراع، وجدت هلين السلطان محمد الفاتح تحت أسوار سمندرة، وقد أُخذت هلين على غرة ولم تجد مفرًا من التسليم، وأذن لها أن تخرج بجميع أموالها، وخضعت بقية القلاع بعد ذلك للعثمانيين ما عدا بلغراد، وصارت صربية منذلك الحين ولاية من ولايات الدولة العثمانية (٨٦٣ - ١٤٥٩م).

وكتب السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يبشره بهذا الفتح، وأهدى إليه بعض الأسرى وأصنافًا مختلطة من الأقمشة.

---

(١) الرشيدي «محمد الفاتح».

وتبقى البوسنة والهرسك، فقد ظلت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر فريسة للمتنافسين الطامعين، يتنازعون الملك فيما بينهم، ولم يتوصل الملك إستيفان توماسيفيتش آخر ملك البوسنة إلى العرش إلا باغتيال والده عام ١٤٦١م بمعونة عمه راديفوج.

وقد أصبح العثمانيون بعد استيلائهم على صربية، يجاورون البوسنة، وكان ملك هذه البلاد: (إستيفان توماسيفيتش أصرح عداوة وأشد خطراً على الدولة العثمانية من أمير صربية، إذ كان هذا الملك حليفًا للبابا والبندقية والمجر، وكان يسعى إلى تأليب الدول النصرانية على العثمانيين.

ولما عزم السلطان محمد الفاتح على إخضاع البوسنة سنة (٨٦٦هـ - ١٤٦٢م) بعث رسولاً إلى ملكها يطلب منه الخضوع للدولة العثمانية والاعتراف بسيادتها ودفع الجزية لها، وإلا فالقتال. فما كان منه إلا أن إقتاد رسول محمد الفاتح إلى خزائن الدولة وأشار بيده إليها ثم قال له: «إنك لترى الأموال هنا مكدسة، ولكني لا أرى إرسالها إلى السلطان، فإن حاربني استعنت بها على قتاله، وإذا اضطررت إلى الفرار واللجوء إلى بلدٍ آخر استعنت بها على تكاليف الحياة».

واستعد السلطان محمد الفاتح للزحف إلى البوسنة، ولكن جدت حوادث اضطرته إلى تأجيل الحملة إلى السنة التالية، أما ملك البوسنة فلم يكد يشعر باقتراب الهجوم العثماني حتى كتب إلى البابا (بي الثاني) ينبئه بالخطر القادم، ويستعجله في إرسال النجدة والمدد والمعونة، وطلب إليه أن يستحث ملك المجر على معاونته ومعاضدته في مقاتلة العثمانيين، بدلاً من تكرار مأساة القسطنطينية على حد تعبيرهم، وإذا تم للأتراك العثمانيين الاستيلاء على البوسنة فإنهم سينقضون بعد ذلك على إيطاليا وروما نفسها.

ولكي يؤكد ملك البوسنة ولاءه وإخلاصه للبابا طلب أن يكون تاجه من عنده، وقد أجيب إستيفان توماسيفيتش إلى طلبه هذا، فبعث إليه البابا بالتاج وقام مندبوه بتتويجه في عاصمته الجميلة يايتزا في حفل فخم حفت به جميع مظاهر الأبهة والفخامة، واشترك فيه النبلاء والأغنياء، وأسبغ توماسيفيتش على نفسه في هذا الحفل الألقاب الملكية الرفيعة الضخمة التي ليست له، وكان ذلك هو كل ما ناله هذا الملك الأحمق من البابا، ولكن الجند والمال والسلاح لم ينل منها شيئًا، وبذلك عجَّل بنهاية حكمه ونهايته شخصيًا.

وفي مطلع فصل الربيع من ٨٦٧هـ - ١٤٦٣م، بعث السلطان محمد الفاتح رسولاً آخر إلى ملك البوسنة يخيره بين دفع الجزية أو القتال، فما كان من توماسيفيتش إلا أن قبض على رسول الفاتح وهمَّ بقتله لولا أن نهاه وزيره؛ لأنه بذلك إنما يستفز غضب السلطان ويعجل هلاك نفسه والقضاء على مملكته، وليس من المروءة قتل الرسول، فلما عاد هذا الرسول أخبر السلطان الفاتح بما رأى فغضب غضبًا شديدًا، وسار بجيشه من فوره إلى البوسنة وحاصر أكبر قلاعها وأمنعها وأقواها وهي قلعة (لوفجة) فاستسلمت بعد ثلاثة أيام، وحاصر بعد ذلك قعلة يايتزا فاستسلمت أيضًا بعد مقاومة ضعيفة.

وكان الملك (إستيفان توماسيفيتش) موجودًا بهذه القلعة، فما كان منه إلا أن فرَّ منها عندما سمع باقتراب الفاتح ولجأ إلى قلعة كلوج الحصينة القائمة على نهر سانا وأرسل السلطان محمد الفاتح وراءه وزيره محمود باشا لمطاردته ومحاصرته، وما إن حاصر محمود باشا القلعة حتى بعث إلى ملك البوسنة يحثه على التسليم وطلب الصلح وأمنه على حياته، فوافق (توماسيفيتش) على ذلك حفاظًا على حياته، فخرج من قلعته وسلمها لمحمود باشا، وتلقى منه كتاب

الأمان، واستاء السلطان محمد الفاتح من تصرف وزيره محمود باشا؛ لأنه كان يرى أن يمضي محمود باشا في حصار القلعة حتى يستولي عليها عنوة، ويكون بعد ذلك في حل من تقرير مصير من بها من المقاتلين بالقتل أو الأسر.

وقبح الفاتح رأي وزيره وعاتبه عتابًا شديدًا. وتتابعت سائر القلاع بعد ذلك للإستسلام أمام العثمانيين، وقبل منتصف شهر يونيو ١٤٦٣م كانت البوسنة كلها قد صارت كلها ولاية من ولايات الدولة العثمانية.

ولم يجد الفاتح مفرًا من الوفاء بالأمان الذي قطعه محمود باشا لملك البوسنة رغم كراهيته لهذا الأمان، ولكن هذا الأمان لم يكن مستحقًا لهذا الملك الخائن، فقد حاول ومعه عدد من الأمراء الانتفاض والثورة برغم ما لقوه من الأمن والسماحة وحسن المعاملة، لذلك استفتى السلطان الفاتح العلماء الذين صحبوه في هذه الحملة في جواز قتلهم . . فأفتى الشيخ علي بطامي بجواز قتلهم؛ بل استل سيفه ونفذ بنفسه هذا الحكم في الملك الخائن توماسيفيتش ثم قتل الأمراء الآخرين[١].

وهكذا تم للعثمانيين فتح البوسنة بقلاعها الكثيرة المنيعة، وتم هذا الفتح في سهولة ويسر، ولم يكلفهم عناءًا كثيرًا أو جهدًا كبيرًا، وقد ساعدهم على هذا الفتح سماحتهم ومروءتهم وحسن معاملتهم للطبقات الفقيرة المعدمة التي ما إن جاء العثمانيون حتى شعروا بأنهم في أمان أكبر من أمان ملكهم، وقد اعترف ملك البوسنة بذلك عندما كتب إلى البابا يقول له: إن العثمانيين يعاملون الفلاحين بلطف وأريحية».

---

(١) المصدر السابق.

وقد لقي فريق كبير من أهل البوسنة اضطهاداً شديد بسبب أنهم على مذهب خاص بعقيدتهم عرف بالبوجوسيل، ولهذا تعرضوا في القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان، وطالما دعا البابوات إلي شن حرب صليبية عليهم، حتى أن البابا (جون الثاني والعشرون) كتب كتابًا في ١٣٢٥م إلى ملك البوسنة يطلب منه أن يقضي على هؤلاء الخوارج ولا يبقي منهم أحداً، واشتد اضطهادهم أيضًا في القرن الخامس عشر الميلادي، وبلغ هذا الاضطهاد حداً لا يطاق، ففر منهم من فر إلى البلاد المجاورة طالبًا النجاة.

وقد كان هذا الاضطهاد سببًا في تمسكهم بعقيدتهم، وزادهم كرهًا وحقداً على ملوكهم وحكوماتهم الظالمة، وتطلعت نفوسهم إلى من ينقذهم من هذا الجحيم الذي يعيشون فيه، ولما ظهر العثمانيون وجدوا فيهم ضالتهم، فاستغاثوا بهم واستنجدوهم، حتى أنهم كانوا يفضلون عمامة المفتي على قبعة الكاردينال.

فلما جاءهم العثمانيون لم ينهض أحد منهم إلى قتالهم، بل رحبوا بمقدمهم واستقبلوهم استقبال من جاء لإنقاذهم وتحريرهم، ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن (البوجوميل) إلا قليلاً، ويبدوا أنهم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم في جموع كثيرة على أثر الفتح التركي، وبقيتهم اعتنق الإسلام تدريجيًا[1].

ويرجع المؤرخون إقبال البوجوميل على الدخول في الإسلام إلى ذلك التشابه بين مذهبهم وبين الإسلام في نواحي كثيرة كالتواضع وتحريم الخمر وعبادة القديسين ومريم العذراء وغير ذلك . . وأشربت نفوس البوجوميل حب الإسلام والتعلق به، والتعصب له حتى فاقوا بذلك الأتراك العثمانيين أنفسهم.

---

(١) «الدعوة إلى الإسلام» السير توماس أرنولد.

وجاءت المحاولة الأخيرة في إعادة البوسنة من ملك المجر (ماتياس كورفان)، فاستولى في السنة التالية على يايتزا لبعض الوقت، ولكنه ما لبث أن خرج منها. واتجه الفاتح بعد ذلك إلى الهرسك؛ لأن فتح هذه البلاد في نظر الفاتح ضروري للجانب الحربي والعسكري، وذلك لمناعة حصون الهرسك وقلاعهم وموقعهم الاستراتيجي الهام المشرف على بحر الإدرياتيك.

وعهد الفاتح بفتحها إلى وزيره محمود باشا، فما إن علم أمير الهرسك بزحف الجيش العثماني نحوه حتى فرَّ إلى إحدى الجزر القريبة، فلما أوشك محمود باشا على فتح الهرسك، وإخضاعها بجميع قلاعها ومدنها سارع ذلك الأمير وأرسل إلى السلطان الفاتح بأثمن الهدايا ملتمسًا منه العفو والأذن له بأن يقيم في عاصمة مملكته السابقة، فوافق محمد الفاتح، فقسم الهرسك قسمين الأول وهو الأهم والأخطر، وقد ضُم إلى الدولة العثمانية، والثاني للأمير الهرسكي. أما ابنه الذي أوفده رسولاً إلى الفاتح فقد شرح الله صدره للإسلام، ونال شرف المصاهرة، وتدرج في مناصب الدولة العثمانية حتى رُقيَّ إلى منصب الوزارة[١].

وعندما مات أمير الهرسك بعد ذلك ضمت البقية الباقية من بلاده إلى الدولة العثمانية، وحظيت ما تحظى به الممالك المحرومة من يمن العدالة، وأصبحت مركزاً من مراكز رايات الإسلام، وامتلأت أرجاؤها بالمنشآت الإسلامية[٢].

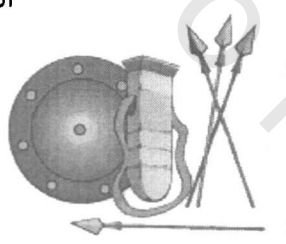

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين.
(٢) المصدر السابق.

فتح المورة

بلاد المورة كانت مقسمة بين الأميرين البيزنطيين الأخوين: (توماس وديمتريوس)، فأقام الأول في تبراس فيما سكن الثاني في إسبرطة، ولم يكن الأخوان على وفاق بينهما مما أدى إلي تدخل الألبانيين في شؤونهما الداخلية، بالإضافة إلى أنهما نزعا إلى الظلم والاستبداد وتأخرا عدة سنوات في دفع الجزية المفروضة عليهما.

ولم يكن بوسع السلطان محمد الفاتح السكوت على التدخل الألباني في المورة، كما لم يرضى عن تزايد الفوضى وظلم السكان، فكان لابد من التدخل السريع لوضع حد لكل ما يحصل.

وقاد السلطان محمد الفاتح حملة عسكرية في عام ١٤٥٨ لفتح بلاد المورة ودخلها من مضيق كورنثوس، واستطاع إجبار الألبانيين على الخروج من البلاد، وفرض على البيزنطيين جزية سنوية قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية كما فتح عدة مدن فيها مدينة سالمينكو التي قاومت مقاومة عنيفة، فقطع الفاتح عنها الماء الذي كان يسقيها، فاستسلمت المدينة.

ولكن قائدها جريتزاس انتقل إلى القلعة وواصل قتاله هناك إلى أن نفذت قواه فعرض على السلطان الفاتح أن يسلم له على أن يأذن له بالرحيل إلى ليبانت، وقد قدر الفاتح لهذا القائد شجاعته وبسالته وتركه يذهب حيث أراد[1].

---

(١) «عاشق زادة تاريخي» استانبول ١٣٣٢.

وكان للسلطان محمد الفاتح مواقف عظيمة تتسم بالشهامة والسماحة، حدث ذلك في أيام فتوحات المورة، فقد كان السلطان محمد الفاتح عند بدء توغله في المورة قد أرسل قائده زغنوش باشا لفتح الشمال الغربي من شبه الجزيرة، وحدث أن أعطى هذا القائد حامية إحدى القلاع الأمان على حياتها وأموالها، ولكنه نكث قوله عندما رأى وفرة الأموال، فاستحوذ عليها بعد أن قتل رجال الحامية، فلما بلغ ذلك السلطان استشاط غضبًا وعزل زغنوس باشا من منصبه.

أما عن حاكمي المورة ديمتريوس وتوماس، فإن السلطان الفاتح قد جعل للأول قصرًا في مدينة إينوس وعيَّن له راتبًا سنويًا سخيًا، وقضى الأمير الرومي بقية حياته في عيشه رافهة هادئة ثم ترهَّب في آخر عمره وتوفى ١٤٧١م بأدرنة، أما توماس فإنه أول ما علم بدخول السلطان الفاتح أسبرطة فرَّ إلى ميناء (نافارين) وهرب على إحدى السفن إلى كورفو، ومن هناك بعث إلى السلطان الفاتح يعرض عليه أن يسلم مدينة تونمفازيا على أن يوليه على الجنوب الشرقي من المورة، ولكن الفاتح لم يكترث لأمره.

وظل توماس في كورفو يترقب إلى أن فقد كل أمل في العودة إلى المورة فأقلع في أواخر ١٤٦٠م مع بعض رجاله من النبلاء إلى روما ليطلب المعونة والمساعدة من البابا (بي الثاني) ودوق ميلان، وغيرهما من أمراء النصرانية، ولكنه لم يلق شيئًا مما كان يريد حتى غلبه اليأس فعاد أدراجه إلي درازو بألبانيا، وظل بها حتى مات في ١٢ مايو ١٤٦٥م وتفرق أصحابه من بعده وتشتتوا في أنحاء إيطاليا[١].

---

(١) د/ سالم الرشيدي «محمد الفاتح».

وأصبحت بلاد المورة التي كانت ثورة للفتن والحروب، أصبحت ساكنة، فقد استأصل محمد الفاتح منها كل أسباب الفتن فعاشت في رفاهية ورغد واطمئنان.

وبفتح أثينا والمورة أصبحت اليونان كلها للدولة العثمانية بإستثناء بعض المواقع والقلاع المتفرقة على الشواطئ مثل كورون وموورون وأرجوس وليبانت، وقد كان أغلبها للبنادقة.

وقد اهتم محمد الفاتح بمضيقي البوسفور والدردنيل؛ إذ يقع بين هذين المضيقين بحر مرمرة الذي يفصل بين تركيا الأسيوية وتركيا الأوربية، فشيد القلاع وقام بزيادة الدعم والتحصين للمواقع القريبة من القسطنطينية، وتملك الجزر الكبرى في بحر إيجه وعزز دفاعات دولته وبلاده.

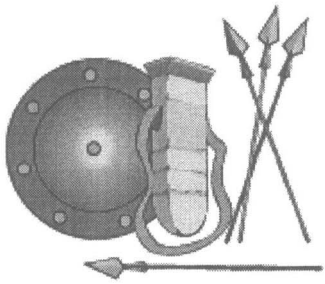

obeikandl.com

فتح الأفلاق والبغدان

هاتان الأمارتان الرومانيتان هما في شمالي نهر الدانوب، وتحيط بهما ثلاث دول كبرى تتنازع السيادة عليهما: بولندا والمجر والدولة العثمانية، فكانتا بحكم موقعهما الجغرافي تحالفان هذه الدولة تارة، وتلك تارة أخرى وفقًا للمصلحة، لذلك اتسمت سياستهما بالتذبذب والتغير.

وفي عام ١٤٦٠م كان حاكم الأفلاق دراكول على موعد لتوقيع معاهدة مع السلطان محمد الفاتح تعهد بموجبها بأن يدفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا مقابل احتفاظ الإمارة بإدارتها الداخلية وحماية عثمانية ضد أي عدو خارجي[١].

وفي أثناء ذلك، كان يسعى للتحالف مع ملك المجر ماتياس كورفف ضد العثمانيين، وبالفعل ثمَّ له ما أراد حيث أغار على الأراضي العثمانية في بلغاريا وأحرق المدن والقرى[٢].

وقام السلطان محمد الفاتح ليواجه هذا الرجل الخائن لعهده، ليضع حدًا لتجاوزاته وتعدياته، وسار إليه على رأس جيش يعَدُّ بمائة وخمسين ألف جندي، فدخل الأمارة ووضع يده عليها، وهرب الخائن دراكول والتجأ إلى ملك المجر، فعزله السلطان وولى مكانه أخاه راؤول الذي تربى في البلاط العثماني، كان

(١) «تاج التواريخ» سعد الدين (جـ١ - ص٤٨٦).
(٢) المصدر السابق.

ذلك في عام ١٤٦٢م، وبذلك استطاع محمد الفاتح فتح بلاد الأفلاق، وأضحت تحت السيطرة المباشرة للخلافة العثمانية.

أما البغدان فكان قائمًا على إدارتها أسطفان الأكبر، الذي استغل إنهماك الفاتح بالحروب المتواصلة في أسيا الصغرى وبلاد اليونان، فقرر التخلص من التبعية العثمانية، وهاجم إمارة الأفلاق، لذلك قرر السلطان قتال أسطفان هذا لإعادة إخضاعه، إلا أنه كان يتغلب كل مرة على الجيوش العثمانية، ولم يتمكن العثمانيون من إخضاع هذه الإمارة إلا في عام ١٥٥٤م[1].

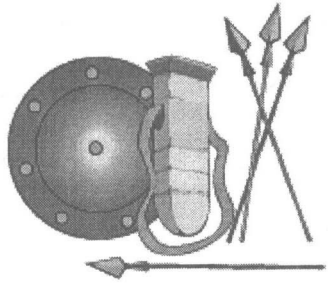

(١) «تاريخ سلاطين آل عثمان» أحمد القرماني (ص٣١).

obeikandl.com

فتح ألبانيا

كانت ألبانيا شأنها شأن الصرب، فهي تقع بين أملاك الدولة العثمانية وأملاك البندقية التي أبدت عداوة شديدة للدولة العثمانية، حيث كان التوسع العثماني في البلقان يعني إغلاق مجالات حيوية تعمل فيها البندقية.

وكان على رأس ألبانيا رجل قوي يزود عن بلاده بقوة سيفه، وهزم جميع الجيوش العثمانية التي قاتلته في عهد السلطان مراد الثاني، وابتهج أهل إيطاليا ابتهاجًا عظيمًا بانتصاراته، وبعثوا إليه يهنئونه وأرسل إليه الفونس ملك نابولي الجنود والرجال المدربين من المعدنيين والمدفعيين.

وهذا الرجل هو إسكندر بك الذي حاول العثمانيون القضاء عليه وفتح المدينة الألبانية كُرُويا، إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على ألبانيا إلا بعد وفاة هذا الرجل.

وقد واصل السلطان محمد الفاتح حملات والده على ألبانيا، فوجه إليها بعد فتح القسطنطينية جيشين متواليين هزمها إسكندر بك، وزاده ذلك ثقة وإيمانًا بقواته، فحاصر مدينة بيرات التي كانت لا تزال في أيدي العثمانيين، وشدد عليها الضغط وكاد يستولي عليها لولا أن جاء جيش عثماني بقيادة ـ صوالي ـ فانقض على إسكندر بك وهزمه، فلجأ إلى جباله وهو يرى فريسته وقد أفلتت من يده، وتميزً من الغيظ وحد بأسنانه ونفث الدم من شفته السفلى، وقتل في هذه المعركة صديقه موزاخي وقد كان من خيرة قوّاده، وقتل معه جميع من كان معه من جنود نابولي الذين أرسلهم الملك الفونس، وعظم ابتهاج الأتراك بهذا النصر، فقد كان أول نصر يحرزونه على الألبانيين، ولكنه كان آخر نصر أيضًا.

وفيما كان إسكندر بك يقاسي آلام الهزيمة إذ خانه صديقه وزميله في السلاح دبره لي موسى، وحاول أن يستميل الألبانيين ويغريهم بالفرار معه إلى الجيش العثماني الظافر، وترك إسكندر بك المهزوم الذي انتهى عهد انتصاراته، ولن يقوى بعد ذلك على مقاتلة العثمانيين، ولكنه لم يجد من يصغي إليه، ففر وحده، وصحب القائد العثماني صوالي في عودته إلي القسطنطينية.

وقد ثارت في نفس السلطان محمد الفاتح الشكوك في بداية الأمر في حقيقة أمره ونواياه، واعتقد أن إسكندر بك بعثه عينًا يتجسس عليه ودسيسًا يتعرف أخباره وأسراره فراقبه في يقظة وحذر فترة من الزمن حتى اطمأن بعض الشيء، وأكد (دبره لي موسى) للسلطان أنَّه قادر على إخضاع إسكندر، وطلب إليه أن يمدَّه بخمسة عشر ألف جندي فقط، ويرجع إليه بعد ذلك برأس إسكندر بك، وأجابه الفاتح إلى ما طلب.

وخرج موسى بجيشه إلى ألبانيا والتقى به إسكندر بك في (دبر السفلى)، وما إن اشتبك الجيشان حتى أستطاع إسكندر بك هزيمته وتمزيق الجيش العثماني، وفرَّ موسى عائدًا إلى القسطنطينية ودخلها وهو منكس الرأس في خزي، وتجهم له السلطان الفاتح وأعرض عنه، واستحوذ اليأس والقنوط علي موسى وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يجد مقامًا في القسطنطينية فعاد إلى ألبانيا وارتمى بين قدمي إسكندر بك يستغفره عن زلته، فعفا عنه وأعاد إليه ما كان له من المنزلة.

ولم يكد إسكندر بك يفعل ذلك حتى فوجئ بصدمة أُخرى أشد عنفًا ومرارة، فقد خرج عليه ابن أخته حمزة وفرَّ إلى القسطنطينية بعد أن وعده السلطان الفاتح بأن يجعله واليًا على أبيروس إذا استطاع أن يهزم إسكندر بك،

والواقع أن إسكندر بك قد ساوره شيء غير قليل من القلق والخوف؛ لما كان يعرفه عن ابن أخته حمزة من الكفاية والذكاء والإحاطة بمواقع بلده، وقد أرسله السلطان الفاتح إلى ألبانيا في أربعين ألفًا من الجند ومعه القائد العثماني عيسى بن أوره نوس، وتأهب إسكندر بك للقائهما، بعد أن تخير لنفسه أحسن المواقع، وانقض على الجيش العثماني في سهل السبوبين نهري ماتيا ودرين، وأمعن فيه فتكًا وتقتيلاً حتى جرت دماؤهم غزيرة في نهر درين وصبغه باللَّون القاني، وانهزم الأتراك إنزامًا تامًا، وأسر حمزة مع أحد كبار قادة الجيش التركي.

ودخل إسكندر بك مدينة كرويا ظافرًا منتصرًا محملاً بالغنائم الوفيرة، وأزاع نبأ انتصاره على جميع ملوك أوروبا زاعمًا أنه قتل من الأتراك ثلاثين ألفًا، وبعث إليهم ببعض الغنائم والأسرى، وعفا إسكندر بك عن ابن أُخته حمزة واتفق معه على أن يتظاهر بالفرار ويذهب إلى القسطنطينية دون أن يثير الريبة والشك ويعود منها بزوجته وأولاده، ولكنه مات بها مسمومًا.

ولم يكن في وسع السلطان محمد الفاتح آنذاك أن يوالي إرسال حملاته إلى ألبانيا بغير انقطاع، فقد كانت هناك أمور أخرى هامة تغشله في أسيا ومجابهة البندقية التي اندلعت نيران الحرب بينها وبينه، ورأى أن لا مناص من مهادنة إسكندر بك للتفرغ لهذه الشؤون، فأوفد إلى ألبانيا مزيد بك ومعه قدرًا كبيرًا من المال لافتداء كبار الأسرى من العثمانيين ومباحثة إسكندر بك في عقد الهدنة.

وكان إسكندر بك من جانبه يرى أن الهدف الذي يرمي إليه من الحرب هو صد الغزاة ومنعهم من احتلال بلاده، وقد نجح في ذلك أيما نجاح، وكانت بلاده بعد هذه الحروب الطويلة المتوالية بالرغم من انتصاراته في أشد الحاجة إلى الراحة

وأن ينصرف الزراع إلى مزارعهم، ولابد له بعد ذلك من استجابة دعوة البابا (بي الثاني) وحليفه ملك نابولي إلى الشخوص إلى إيطاليا لمعاونته في حربه ضد الفرنسيين.

وهكذا انتهت المفاوضات التي كانت تحدوها الرغبة من جانبي محمد الفاتح وإسكندر بك على السواء إلى عقد الصلح بينهما في (١٣ رمضان ٨٦٥هـ - ٢٢ ينويو ١٤٦١م)، وأعيدت إلى إسكندر بك قلعتا سيتفجراد وبيرات ـ اللتان كانتا يحتلهما العثمانيون ـ، ولم يكد يتم هذا الاتفاق حتى أسرع إسكندر بك في السفر إلى إيطاليا وأبلى أحسن البلاء في مناصرة حليفه ملك نابولي فرديناند الذي خلف أباه الفونس، وفي أثناء غيابه بإيطاليا قام العثمانيون بفتح المورة على نحو ما أبنا من قبل.

ولم تدم الهدنة أكثر من ثلاث سنوات، إذ لم يكد يعود إسكندر بك من إيطاليا ١٤٦٣م، حتى دعا البابا (بي الثاني) جميع النصارى إلى شن حملة صليبية موحدة على العثمانيين، وأبلغ دعوة البابا هذه إلى إسكندر بك (بول أنجلو) مطران دراز وهو صديق حميم له، ونجح في حمله على نقض عهده مع الفاتح وإقناعه بأن هذا العمل لا يعد جريرة بل هو قربةً إلى الله، واغتبط البابا بنجاح رسوله في أداء رسالته وكافأه بقبعة الكاردينالية.

ولما علم الفاتح بهذا الأمر بعث إلى إسكندر بك يذكره بما بينهما من العهد ويناشده الوفاء به والمحافظة على الهدنة، فما كان منه إلا أن سخر من الفاتح وقال: إنَّه لن يعقد معه أي عهد إلا إذا ارتد هو عن دينه المزيف (الإسلام)؟!!

ولم ينتظر إسكندر بك الجيوش الصليبية التي كان سيأتي بها البابا بنفسه إلى ألبانيا، بل بادر بالإغارة على أملاك الدولة العثمانية وتخريبها، فسيَّر إليه

الفاتح قائده شرمت بك على رأس أربعة عشر ألفًا من الفرسان، ولاقاه إسكندر بك في أوخري وأوقع به الهزيمة وأسر ثلاثة عشر شخصًا من كبار رجال جيشه، فداهم شرمت بك بأربعين ألف دوقة، وغضب السلطان الفاتح لهذه الهزيمة فسير إلى ألبانيا جيشًا آخر يقدر بخمسة عشر ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة القائد الجسور (بالابان بك) وهو ألباني الأصل، وقد أظهر في حصار القسطنطينية شجاعة فائقة وبسالة نادرة، وكان أول جندي نصب العلم العثماني على أسوار هذه المدينة، وقد كافأة السلطان الفاتح على ذلك بأن رقاه إلى مرتبة القيادة.

حاول القائد (بالابان) أول الأمر أن يستميل إليه إسكندر بك بالهدايا ويغريه بالوعود الخلابة، ولكن هذه المحاولة ذهبت هباءً بغير طائل، ولم يجد (بالابان بك) في آخر الأمر مفرًا من مقاتلته، وقد اختار إسكندر بك لملاقاته وكان أقهر الناس في اختيار الأمكنة (واد فخاليا) حتى لا تطغى عليه كثرة الجيش العثماني، وقد توقع أن يكون وراء هذا الوادي كمين للعثمانيين فحذر جنوده إلى ذلك قبل نشوب القتال ونهاهم عن مطاردة العدو إذا ما كُتِبَ لهم النصر في القتال.

وما هو إلا أن التحم الجيشان حتى انهزم العثمانيون وارتدوا على أعقابهم، ولم تستطع تحذيرات إسكندر بك أن تمنع ثمانية من أشجع قواده من الإندفاع وراء المهزومين، فوقعوا في شرك وأحيط بهم من كل جانب، وأسرهم العثمانيون وأرسلهم (بالابان) إلى القسطنطينية، وبادر إسكندر بك إلى دفع فدية كبيرة عنهم، ولكن الفاتح رفضها؛ فقد كان يرى في حياتهم خطرًا شديدًا تهون إلى جانبه كل فدية مهما عظمت، وأمر بقتلهم.

وكان لفقد هؤلاء القواد الشجعان أثر عميق من الحزن في نفوس أهل ألبانيا ونفوس الجنود الألبانية بخاصة، فلبسوا السواد وأطلقوا شعورهم ولحاهم حدادًا عليهم، وأشتد الحنق والغضب بإسكندر بك وجنوده فانقضوا على العثمانيين والتحموا بهم في معركة حامية رهيبة في (أوزيخ) بالقرب من (دبرا العيليا) أرغمت (بالابان بك) على الإنسحاب.

ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جديد أرسله له السلطان محمد الفاتح تعداده سبعة عشر ألف فارس وثلاثون ألفًا من المشاة، وظل يترقب فترة من الزمن حتى ظن أن الفرصة قد واتته، فهجم بكل قوته على أسكندر بك بالقرب من سنيتجراد، وحمل عليه حملة عنيفة، وحمى وطيس القتال، وأصيب أسكندر بك بجرح بالغ في ذراعه، واصطدم جواده اصطدامًا شديدًا بجزع شجرة فسقط عنه إسكندر بك مغشيًا عليه، وترددت كفَّة النصر زمنًا بين الفريقين، وما لبث إسكندر بك أن أفاق من غشيته وكرَّ على العثمانيين كرَّة عنيفة مزَّقت صفوفهم وهزمتهم هزيمة ساحقة، ولم ينج (بالابان) نفسه إلا بصعوبة.

ولم توهن هذه الهزيمة ولا هذا الإنكسار من عزم محمد الفاتح ولا عزم قائده بالابان، واقترح أن يعد جيشان قويان يزحفان إلى ألبانيا في وقت واحد من طريقين مختلفين، وتولى قيادة أحد الجيشين يعقوب أرناؤوط، وكان عليه أن يدخل ألبانيا من الجنوب متبعًا ساحل البحر، ويقود (بالابان) الجيش الثاني فيسير من تراقيا ومقدونية ويدخل ألبانيا من معابر الجبال[1].

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» سليمان أوزوتا (جـ١).

وعلم إسكندر بك من جواسيسه بخطط الأتراك، وأدرك أن السرعة وحدها هي التي ستمكنه من منع الجيشين التركيين من التلاقي والإطباق عليه، فعجَّل بملاقاة (بالابان) وهزمه وفيما كان جنوده يقتسمون الغنائم إذ جاءه رسول من عند أُخته (مافيرا) بأن يعقوب أرناؤوط ـ وهو القائد لجيش محمد الفاتح الثاني ـ قد دخل مدينة (بيرات) في ستة عشر ألفًا من الفرسان يكتسحون كلَّ شيء أمامهم، فأسرع إليهم إسكندر بك بجيشه وقذف إليهم من أعالي الجبال برؤوس قتلى الأتراك من جيش بالابان لكي يعلمهم أن الهزيمة قد حلت بهم، ثم اشتبك الجيشان في قتال عنيف لم يسبق له مثيل، وبحث إسكندر بك عن يقعوب حتى لمحه وسط الجند فنهض إليه وطوَّح رأسه بسيفه، وتشتت شمل الجيش العثماني بعد مقتل قائده وتمت عليه الهزيمة.

عاد إسكندر بك إلي (كرويا) ودخلها دخول الظافر المنتصر واستُقبل استقبالاً عظيمًا بهيجًا، ثم بعث إلي ملوك أوربا يبشرهم بالنصر العظيم الذي أحرزه وأرسل لهم بعض الأسرى العثمانيين، كما أتحفهم ببعض ما غنمه منهم كالجياد والسيوف والقسي، وشهَّر هذا الانتصار إسكندر بك واعتبره الأوربيون بطلاً من أبطال النصرانية الذي يدافع عنها ضد تيار الإسلام الجارف، وأصبحت جبال ألبانيا في نظر أهل الغرب معقل النصرانية الحصين الذي تتحطم على صخورة حملات الإسلام الزاحفة . . وأخذ بعض الجنود العثمانيين يتحدثون عن بسالة (إسكندر بك) وشجاعته في الحرب، تحدَّثوا بوجه خاص عن سيفه الصمصام الغريب المهول الذي يفلق الثور إلى نصفين بضربة واحدة!!

واشتاق السلطان محمد الفاتح إلى رؤية هذا السيف الأسطورة، وبعث في طلبه من صاحبه، ولكنه عندما جرَّبه وجده دون ما بلغه عنه، بل أن في الكلام

عنه مبالغة، وكتب بذلك إلى إسكندر بك، فأجابه بقوله: «إنَّ المعجزة ليست في السيف، وإنما في الساعد الذي يضرب به»[١].

ولم يجد السلطان محمد الفاتح بدًا بعد فشل قوَّاده أن يخرج بنفسه، فأعد جيشًا كبيرًا يربو على مائة ألف جندي، وزحف به إلى ألبانيا ودخلها في ذي القعدة (٨٧٠هـ/ يونيو ١٤٦٥م)، واستعاد بعض القلاع، ورأى إسكندر بك أنه من الحمق أن ينازل بجيشه الصغير هذا الجيش الضخم العرمرم في ميدان مكشوف، فغادر (كرويا) قبل أن يحاصرها الجيش العثماني، وترك بها حامية قوية تحت قيادة رجل إيطالي يُدعى (بالتاسار پردوشي) عرف ببراعته وحذقه في الهجوم على القلاع والدفاع عنها، ولاذ هو بالجبال وأخذ ينقض منها بين حين وحين على الجيش العثماني ويفتك بساقته.

ووجد الفاتح أن الحصار سيطول قبل أن يؤتى ثمرته، وهناك أمور هامة تستوجب عودته إلى القسطنطينية، فعهد إلى قائده (بالابان) في مواصلة حصار (كرويا) ويشدد قبضته عليها حتى تستخذى وتستسلم ووجد إسكندر بك من جانبه أن كثيرًا من أجزاء بلاده قد خرَّبتها المعارك، وأن الحروب المتواصلة التي خاضها برغم أنَّها كللت بالانتصارات قد نهكت جيشه وذهبت بكثير من خيرة قاداته ورجاله، وهناك بعض القلاع والحصون تعوزها الحاميات.

وتلفت إسكندر بك فيمن يقوم بنجدته والاستعانة به، فرأى أن أقرب البلاد إليه وإلى نجدته ومعاونته هي إيطاليا؛ إذ أنها أكثر البلاد تعرضًا للخطر، فإن الأتراك العثمانيين إذا ما استولوا على ألبانيا فلن يكون أمامهم هدف بعد ذلك غير إيطاليا، يضاف إلى ذلك أن البابوية كانت تنظر إلى إسكندر بك على أنَّه

---

(١) «تاريخ سلاطين آل عثمان» للقرماني.

ابن المسيح البار وحامي النصرانية الأشم، وقد رشحته من قبل لقيادة الحملة الصليبية الكبرى ضد العثمانيين، فهل تضن عليه الآن بالمعونة والنجدة؟ ألم يسبق له هو نفسه أن أنجد البابا وملك نابولي؟

وقد أسر إسكندر بك إلى بعض رجاله بعزمه على السفر إلى إيطاليا، وذكر لهم أن الأتراك سيظلون على حصارهم معتقدين أنَّه رابض بين الجبال يتربص بهم، فليس هناك إذن حاجة ملحَّة إلى بقائه في ألبانيا، وتنكر في زي فلاح وأبحر في تكتم شديد إلى روما حيث لقى البابا (پول الثاني) الذي احتفى بمقدمه.

فذكر له إسكندر بك الأمر الذي جاء من أجله ورجا منه في إلحاح شديد أن يمدَّه في جهاده إن لم يكن بالرجال فلا أقل من أن يمده بالعتاد والمال، ثم اجتمع بالكرادلة اللذين بالغوا في الحفاوة ببطل النصرانية، فوصف لهم إسكندر بك الأخطار التي تهدد إيطاليا والنصرانية، فإن الأتراك يتقدمون كل يوم، ويقتربون من إيطاليا، لقد قضوا على القسطنطينية واليونان وصربية والبوسنة، وبقيت أنا وحدي في بقعة صغيرة أقاتل بجيشي الصغير حتى نفذت قواي، فمدوا أيديكم إلينا قبل أن يفوت الأوان ويستفحل خطر الأتراك فلا يبقى على الشط الآخر من بحر الأدرياتيك رجل واحد من أتباع المسيح[1].

وتفضل البابا (پول الثاني) فخلع على إسكندر بك شارات التشريف وأهدى إليه قبعته وسيفًا باركهما بيده، وقدَّم له مالاً، ثم كتب إلى جميع أمراء النصرانية يستحثهم على معاونته ومناصرته، فأمدته جمهورية البندقية بجنود مسلحين من المشاة والفرسان كما بعث إليه رؤساء المقاطعات بمدد جديد من الرجال الأشداء.

---

(١) «محمد الفاتح» الرشيدي (ص١٩٩).

غادر إسكندر بك عائداً إلى بلاده فوجد (بالابان بك) القائد العثماني مازال على حصار لـ(كرويا) وينتظر مدداً جديداً من الجند سيأتي به أخوه يونس، فلما علم إسكندر بك بأمر هذا المدد صمم أن يحول بينه وبين الوصول إلى (بالابان) بأي ثمن لكيلا تزداد قوته وشدة ضغطه على (كرويا)، فكمن مع نخبة من رجال في بعض الطرق التي سيمرُّ بها يونس، ثم انقض عليه فأسره وأسر معه ابنه خضر وشتت شمل الجيش الذي جاء به، وأتى بالأسيرين مكبلين الحديد وعرضهما من بعيد على (بالابان) ثم ضربهما بالسيف نصفين.

ولما رأى (بالابان) منظر أخيه وهو يُعدم صعق وأخذته الدهشة، فقد كان يترقب المدد الذي أتي به أخوه بصبر شديد ويعلق عليه أملاً كبيراً في الهجوم على (كرويا) التي اعتقد أنها قد أوهنها الضيق وطول الحصار، فلما رأى ما صار إليه يونس والجيش الذي جاء به تملكه اليأس والحنق وهجم بجيشه على المدينة لا يبالي ما يكون، واندفع إلى الأمام بغير رؤية كالمجنون، فأصابته قذيفة قاتلة في حلقه وصرعته في الحال، وشاع خبر مقتله بين جنوده فأحدث الفوضى والاضطراب في صفوفهم وإنسحبوا إلى تيرانا.

وحاول إسكندر بك أن يمنع جنوده من ملاحقتهم، ويكفهم نصراً وظفراً أنهم رفعوا الحصار عن كرويا، ولكن هؤلاء الجنود كانوا يكنون غيظًا وحقدًا من طول ما عانوا من وطأة الحصار في المدينة، فاندفعوا وراء العثمانيين، وأحاطوا بهم من كل جانب، ورأى العثمانيين أن بقائهم محصورين في موضعهم سيقضي بهم حتمًا إلى الهلاك، فاستجمعوا قوتهم واقتحموا النطاق المضروب حولهم وشقوا لأنفسهم طريقًا للنجاة، وإن لم يتم لهم ذلك إلا بتضحية غير يسيرة في الأنفس.

وبالرغم من فشل القوات التركية في إخضاع (كرويا) فإن السلطان الفاتح لم يشأ أن يستسلم للهزيمة ويدع الألبانيين إلى الراحة والطمأنينة، فأرسل قوات أخرى لمناوشتهم وجعلهم دائمًا في تخوفٍ وحذر، وأمر بتحصين مدينة البسان وهدم مدينة تشودري التي أنشأها الأسكندر الأكبر بالقرب من درازو على شاطئ البحر.

أما إسكندر بك نفسه فقد أخذ يطوف ببعض المدن ويتعهد شؤون جنده ويتأهب لما قد يأتي به الغد، ووصل في تطوافه إلى مدينة اليسو وهي للبنادقة، حيث دعا إلى عقد اجتماع عام، ولكن حمى عنيفة فاجأته واشتدت عليه وطأتها فشعر بدنو أجله، فدعا إليه رجاله وقواده، وأوصاهم بمواصلة الكفاح والدفاع عن النصرانية والذود عن الحمى، وأوصاهم خيرًا بابنه (چان) وأن يكنوا له الإخلاص والحب والصدق، كما كانوا يفعلون من قبل مع أبيه، ولما كان ابنه هذا لا يزال قاصرًا فقد عهد بالوصاية إليه إلي حليفته جمهورية البندقية، ومات إسكندر بك في ١٤٦٧م، وانتشرت الفوضى في البلاد وأصبح العثمانيون والبندقية ورؤساء القبائل يتنازعون السيطرة والسيادة عليها.

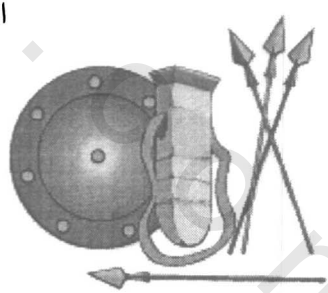

وعانى العثمانيون من جهتهم كثيرًا من ضراوة المعارك في ألبانيا.

فتح أماستريس وسينوب وطرابزون

وتتجه أعين العثمانيين إلى أسيا الصغرى، فتجد مملكة طرابزون وإمبراطورها يوحنا الرابع يفكر في إخراجهم من أسيا الصغرى، ولم يعتبر لما حدث لإمبراطور القسطنطينية من قبل.

وبدأ يوحنا يفاوض الدول المجاورة والصديقة بهدف تشكيل أئتلاف ضد العثمانيين، ووجد في الأمير التركماني الطموح (أوزون حسن) ـ حسن الطويل ـ زعيم آلاق قونيلوا (الخراف البيضاء) وجد فيه خير حليف ونصير، وقد جمعتهما مصلحة مشتركة هي كراهية العثمانيين، وربطت أواصر الصداقة بينهما مصاهرة؛ حيث تزوج أوزون حسن من كاترين ابنة يوحنا . ونجح يوحنا في استمالة الأُمراء المجاورين له، وهم أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينيا الصغرى الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعقائدهم، الحقد على الدولة العثمانية[١].

وحاول يوحنا أن يضم إلى هذه القوى الشرقية، قوة اللاتين في الغرب، فأجرى مفاوضات مع البابا من أجل هذه الغاية، غير أن الوفاة أدركته في عام ١٤٥٨م قبل أن يتم مشروعه، واستبد بالحكم بعد أخوه داوود، وكان على صفات أخيه، فواصل جهوده لإتمام تكوين الجبهة المتحدة ضد العثمانيين، وسانده دوق بورغنديا، وأوصى البابا دول الغرب الأخرى بمساعدته[٢].

وكانت جنوة فيما تملك من مستعمرات في الشرق مدينة أماستريس في أسيا الصغرى على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم، وتعد هاتان المستعمرتان وخاصة الأخيرة منهما من أهم المراكز التجارية لجنوة في الشرق.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٣٥).

(٢) «تارخ الدولة العثمانية» محمد فريد بك.

وفي الوقت الذي نمت فيه الدولة العثمانية أصاب جنوة الضعف والوهن، وتوسعت الدولة العثمانية في فتوحاتها، ولما تخوفت جنوة على مستعمراتها في الشرق سلَّمت هذه المستعمرات إلى المؤسسة القوية (بنك القديس جورج)[١]، لتتصرف فيها كما تشاء، وقامت هذه المؤسسة بدور بارز في تأليب القوى ضد الدولة العثمانية بالتنسيق مع إمبراطور طرابزون وبمساندة من البابا الذي اعتبر هذه المواقع الواقعة على البحر الأسود بمثابة مواقع أمامية للنصرانية.

وخططت القوى المتحدة لعملية عسكرية تستند على فتح جبهتين في وقت واحد، جبهة في الغرب، وأُخرى في الشرق، بحيث يقع العثمانيون بين فكي كماشة . . كان السلطان الفاتح يعلم من عيونه وجواسيسه ما يحاك ضده في الخفاء بين إمبراطور طرابزون بالاشتراك مع حكام أماستريس من الدسائس، فقام يواجه هذا الائتلاف الذي اتحد ضده بكل ثبات وعزم.

وبعد مرور عامين من الاتصالات والمشاورات تحرَّك أوزون حسن بإيعاز من يوحنا الرابع إمبراطور طرابزون، فطلب من الفاتح إسقاط الجزية عن إمارته، وتجرأ بأن طالبه بدفع الجزية إليه[٢].

لذلك فقد قرر السلطان الفاتح مواجهة الأعداء، فرفض طلب أوزون حسن، وما أن أنجز عملية فتح بلاد المورة حتى أعدَّ في ربيع عام ١٤٦١م جيشًا بريًا تولى بنفسه قيادته، وأسطولاً بحريًا عهد بقيادته إلى محمود باشا، وأسرع بالزحف نحو أماستريس وفتحها دون مقاومة؛ حيث فاجأ قادتها وأخذها على غرة . . ثم واصل زحفه نحو سينوب الغنية بمناجمها

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

(٢) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي (ص٢٥٩).

ومعادنها؛ حيث كان يخشى أن تقع في أيدي أوزون حسن ويتخذها المتحالفون قاعدة لأعمالهم العسكرية.

عندئذ أدرك إسماعيل أنه أمام خطر داهم، وأنه لا قبل له بمواجهة الجيش العثماني فطلب الأمان والتسليم، وذهب إلى خيمة السلطان الذي استقبله بالترحاب وأقطعه أراضي واسعة في جهات: بروسة ويكي شهد وآنية كول، وبذلك دخلت إمارة سينوب في قبضة العثمانيين، ولم يضيع الفاتح وقته، فأمر أسطوله بمواصلة الإبحار إلى طرابزون في حين زحف بجيشه البري نحو أرضروم عن طريق أماسيا لضرب أوزون حسن المتقدم لنجدة حليفة داوود إمبراطور المدينة.

فوجئ أوزون حسن وأصابه الذعر من هذا الظهور السريع وغير المتوقع لمحمد الفاتح، وكانت المفاجأة سببًا في أنه فكر سريعًا بأنه لا قبل له بمفرده أن يقاتل السلطان محمد الفاتح، فجنح للسلم، واشترط محمد الفاتح أن يكف هذا الأمير التركماني عن نصرة إمبراطور طرابزون، وأن يوقف اعتداءاته على مناطق الحدود، وقد قبل أوزون حسن ما عرضه الفاتح وعقد الصلح بينهما.

وترك السلطان محمد الفاتح المنطقة متجهًا إلى طرابزون لفتحها، وكان أسطوله قد ضرب حصارًا بحريًا شديدًا حولها، وكان حاكمها داوود يترقب في قلق شديد وصول الإمدادات والمعونة من حليفة أوزون حسن، ولم يكن على علم بما تم بين السلطان محمد الفاتح وأوزون حسن.

وعند وصول السلطان محمد الفاتح إلى طرابزون من ناحية البر، وقد كان داوود يتوقع مجيئه من البحر، فوجئ داوود وأسقط في يده وارتبكت قيادته وإرادته، مما دفعه إلى الاستسلام والتسليم للسلطان العظيم محمد الفاتح، وسقطت المدينة في يد سلطان الفاتحين محمد الفاتح.